المحاضرة السّابعة: علم أسباب النّزول؛ تعريفه وطرق معرفته وفوائده

أسباب النزول تعريفه وعناية العلماء به وطرق معرفته[1] :

تعريف سبب النّزول :

هو ما أنزل الله بشأنه قرآناً ؛ وقت وقوعه ، كحادثة أو سؤال :

أولاً: فقولنا "ما أنزل الله بشأنه قرآناً", فقد يكون النازل آية كما كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ حين أَنْزَلَ اللَّهُ صلى الله عليه وسلم: **(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمُ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَآئِكَةِ مُرْدَفِينَ)** – الأنفال 9-.

وقد يكون النازل آيات كما جاء في نزول سور الضحى.

وقد يكون النازل سورة من القرآن الكريم كما جاء في نزول سورة المسد **(تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)**.

ثانياً: وقولنا "وقت وقوعه" : فإنه قد تنزل الآيات أو السورة بعد الحادثة أو السؤال مباشرة كسورة المسد, وقد يتأخر نزول الآية عن السبب أو السؤال بعض الوقت لحكمة أرادها الله تعالى كحادثة الثلاثة الذين خلفوا عن تبوك حيث نزلت بعد أربعين يوماً, وكحادثة الإفك نزلت بعد شهر من الواقعة, وكالسؤال عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين نزلت الآيات بعد خمسة عشر يوماً من سؤالهم.

أما إذا كانت الحادثة وقعت في الأمم الماضية وقبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يرتبط بها سؤال فإنها لا تدخل في أسباب النزول, كالحوادث التي وقعت بين موسى وفرعون, وكحادثة إبراهيم عندما ألقي في النار, وكحادثة أصحاب الأخدود, وكحادثة أصحاب الفيل, فكل ذلك يدخل في باب القصص والأخبار عن الأمم الماضية.

ثالثاً : وقولنا "كحادثة " قد تكون الحادثة مرتبطة بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، أو بزوجات النبي صلى الله عليه وسلم، أو ببعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، أو ببعض المشركين , واحداً أو جماعة منهم ، أو بالمنافقين, واحداً أو جماعة ، أو بأهل الكتاب واحداً , أو جماعة منهم .

رابعاً: "أما السؤال" فقد يتعلق بأمر ماض قال تعالى: **(وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ)** – الكهف 83- فهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن خبر هذا الملك العادل الذي ملك مشارق الأرض ومغاربها .

[1] علوم القرآن الكريم، نور الدين عتر مطبعة الصباح، دمشق، ط1، 1414هـ/1993م، ص47 وما بعدها. بحوث منهجية لموسى الإبراهيم ص 29 وما بعدها.

وقد يكون السؤال متعلقا بأمر حاضر, كما جاء ذلك في قوله تعالى: **(وَيَسْأَلُونَكَ عَن اِلرُّحِ)** – الإسراء 85–وقوله تعالى: **(يَسْأَلُونَكَ عَن اِلْأَهِلَّةِ)** – البقرة 189–.

وقد يكون السؤال متعلقا بأمر في المستقبل كقوله تعالى: **(يَسْأَلُونَكَ عَنِ اِلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساَهَا)** – الأعراف 187– وقوله تعالى: **(يَسْأَلُونَكَ ماذَا يُنْفِقُونَ)** – البقرة 215– .

وينبغي التنبه أنه لا يلتمس لكل آية سبب نزول كما بيّناّ, إذ أن نزول القرآن الكريم لم يكن متوقفاً كله على سبب نزول خاص بل أغلبه نزل للسبب العام، كما قال الجعبري: " نزل القرآن على قسمين , قسم نزل ابتداء , وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال ".

عناية العلماء بأسباب النزول :

اعتنى علماء علوم القرآن بصورة كبيرة بدراسة أسباب النزول , وتظهر هذه العناية من خلال ما يلي :

أولاً : اهتمام أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم من التابعين به ، كما يقول عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود τ : " وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ , ولا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ ", يريد بهذا سبب نزولها .

ثانياً: تأكيد العلماء على أهمية هذا العلم للمفسر, حتى يستطيع أن يفهم كثيراً من الآيات المتعلقة بأسباب النزول فهماً صحيحاً

ثالثاً :هنالك عدد كبير من العلماء أفرد هذا الموضوع بمؤلفات ودراسات خاصة وهي كثيرة منهم :

1– علي بن المديني شيخ البخاري (ت:234 هـ) كتابه مخطوطة لم تطبع.

2– أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت: 468 هـ) له "أسباب النزول" وهو من الكتب القيمة المفيدة جداً .

3– ابن الجوزي (ت:597 هـ) له " أسباب نزول القرآن " .

4– الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت: 852 هـ) له "العجاب في بيان الأسباب".

5– والإمام السيوطي (ت: 911 هـ) له "لباب النقول في أسباب النزول" وهو كتاب حافل موجز محررا لم يؤلف مثله في هذا النوع.

رابعاً : لا يخلو كتاب من كتب علوم القرآن من إفراد هذا الموضوع ببحث خاص .

الألفاظ الدّالة على سبب النّزول (كيف يعبّر عن سبب النزول؟):

استقرأ العلماء الألفاظ التي جاءت في الروايات المختلفة عن أسباب النزول فقسموها إلى قسمين :

القسم الأول : ألفاظ صريحة في السببية

وهي الألفاظ التي تنص على السببية ولا تحمل غيره، وهي التي صرح فيها الراوي بسبب النزول كأن يقول: " سبب نزول هذه الآية كذا " أو يقول: " حدث كذا فأنزل الله كذا "، بأن يأتي بفاء تعقيبية داخلة على سبب النزول بعد ذكر سببها , فهذه الألفاظ نصٌ صريحٌ في السببية والأمثلة عن هذا قد تقدمت.

القسم الثاني : ألفاظ محتملة للسببية

ولما تضمنته الآية من أحكام, فهي ليست نصاً في السببية؛ كأن يقول الراوي: " نزلت هذه الآية في كذا ".

قال الزركشي : " قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: أنزلت هذه الآية في كذا؛ فإنه يريد بذلك أنها تضمنت هذا الحكم؛ لأن هذا كان السبب في نزولها , فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية, لا من جنس النقل لما وقع ".

أو أن يقول الراوي : أظن أو أحسب أن هذه الآية نزلت في كذا.

مسألة: هل العبرة بعموم اللّفظ أم بخصوص السّبب ؟

قسم العلماء النازل من القرآن الكريم إلى ثلاثة أقسام :

أولاً : أن يكون السبب خاصاً واللفظ النازل خاصاً .

ثانياً : أن يكون السبب عاماً واللفظ النازل عاماً .

فهذان النوعان لا خلاف بين العلماء في حمل كل منهما على الآخر وذلك للمطابقة بين السبب واللفظ المنزل .

ثالثاً: أن يكون السبب خاصاً, واللفظ النازل عاماً, فهذا الذي اختلف فيه العلماء، والذي عليه الجمهور أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فمثلاً آيات الظهار وإن نزلت في خولة بنت ثعلبة مع زوجها

إلا أن الحكم عام لهما ولغيرهما، وذلك لأنه لو أراد الله قصر الحكم على السبب ما أنزل علينا لفظاً عاماً, ولأن حمل النصوص العامة على الأسباب الخاصة تخصيص للنص القرآني بما لا يصح أن يخصص به.

كما أنه ينبغي العلم بأن الذين خالفوا الجمهور في أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم , لأن هذا لا يقوله عاقل ولا مسلم على الإطلاق؛ لأنه لم يقل أحد من علماء المسلمين أن عموميات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين , وإنما غاية ما يقال أنها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ وإنما يكون بالقياس ، أو بدليل آخر غير هذا الدليل الذي نزل في سبب خاص .

" فالآية التي لها سبب معين إن كانت أمراً ونهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته, وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزلته أيضاً ".

فوائد معرفة أسباب النزول :

أولاً: يعين على فهم الآية فهماً صحيحاً, ويؤدي إلى معالجة ما يطرأ على البعض من إشكال، وذلك لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، بل هنالك جوانب من أسباب النزول يتوقف فهم المراد منها على علمه، والمفسر لا يستغنى عن علمه؛ لأن فيها بيان مجمل، أو إيضاح خفي وموجز، ومنها ما يكون وحده تفسيرا .

ثانياً: يساعد على إدراك الحكمة التي دعت إلى تشريع بعض الأحكام، ومعرفة مقاصد الشرع، ومراعاته للمصالح العامة، والخاصة في معالجة الحوادث, وحسن رعاية الله بخلقه وسعة سمعه, وعلمه وحكمته .

ثالثاً: يساعد على فهم واقع الدعوة, وكيفية مواجهة الحوادث التي تواجهها: العقدية, والأخلاقية, والاجتماعية, والسياسية، والعسكرية، لأن لارتباط بعض الآيات بأسباب نزول خاص جعل في القرآن واقعية تمس الحياة اليومية للمجتمع في كل جوانبه مما يدل دلالة حيَّة على أن هذا القرآن ينبغي أن يتخذ منهجاً للحياة, تعالج وفق تعاليمه وقائع وأحداث الأمة وكيفية استغلال مثل هذه الأحداث في الناحية التربوية والتعليمية؛ لأن ربط نصوص الكتاب والسنة بوقائع الحياة وأحداثها تجعل معاني القرآن حية في نفوس المسلمين ذات أثر عميق في دواخلهم .

رابعاً: فيه تسهيل لوعي الأمة بكلام ربها ، ويسهل عليها كذلك حفظه لأن معرفة السبب يعين على الفهم, والفهم يعين على الحفظ كما أن ربط الآيات بأحداث معينة يجعلها أكثر رسوخاً في الذهن ، وثباتاً في القلب .

خامساً: معرفة من نزلت فيه الآية بعينه، لأن في ذلك من الفوائد الشيء الكثير إذ فيه إسناد الفضل لأهله, ونفي التهمة عن البريء؛ حتى لا تحمل على غيره بدافع البغض أو المحبة .

سادساً: كشف وجه من وجوه بلاغة القرآن الكريم؛ وذلك من خلال معرفة مراعاة الكلام لمقتضى الحال ؛ وذلك من خلال المطابقة والمقارنة بين الحادثة والنص القرآني الذي أنزل فيها ...إلى غير ذلك من فوائد .